الفرقة الثانية أصليون

مادة (النقد العربي القديم)

الفصل الدراسي الأول٢٠٠٩/ ٢٠١٠م

د. وليد الشيمي

السؤال الأول:

اهتم العديد من النقاد العرب القدماء بإيراد مفهوم للشعر، تحدث عن هذا الأمر تفصيلا من خلال المناقشة والتحليل النقدي لمفهوم الشعر عند كل من (قدامة بن جعفر) و(ابن سلام الجمحي) و(ابن وهب الكاتب) ....الإجابة

قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر: لعل أشهر تعريف للشعر في النقد العربي القديم هو أن "الشعر قول موزون مقفي يدل على معنى " وهو تعريف " قدامة ابن جعفر" المتوفي سنة ٣٣٧ هـ. والحق أنه لما كان قدامه بن جعفر ناقدا يتسم بالمنطقية في تفكيره، وتحديد أموره،

ويذهب قدامه بن جعفر للجزم بأن مفهومه للشعر هو أبلغ وأوجز مفهوم له حيث يقول " وليس يوجد في العبارة عن ذلك أبلغ ولا أوجز – مع تمام الدلالة – من أن يقال فيه: إنه قول موزون مقفي يدل على معنى " إن قدامه قد وسم تعريفه بأمور ثلاثة فهو في نظره أبلغ تعريف وأوجز تعريف، وأتم تعريف دلالة، والحق أن هذا الكلام من قدامه قد يعد مبالغة حيث يحتاج إلى إقامة الدليل على هذه الأوصاف التي بلغت المنتهي باستخدامه " أفعل " التفضيل ولهذا فإن قدامه سرعان ما حاول أن يقيم الدليل على هذه النعوت، فقام بتفصيل التعريف بقوله:" فقولنا: قول: دال على أصل الكلام الذي هو بمنزلة الجنس للشعر.وقولنا: موزون: يفصله مما ليس بموزون، إذ كان من القول موزون وغير موزون.وقولنا: مقفي: فصل بين ما له من الكلام الموزون قواف، وبين ما لا قوافي له، ولا مقاطع.وقولنا: يدل على معنى: يفصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك من غير دلالة على معنى " إن هذه الدلائل التي قدمها قدامه بن جعفر، وإخراجه لما ليس بشعر من خلال هذا الحصر المنطقي لمفهوم الشعر يدل دلالة واضحة على أن الناقد هنا لا ينظر للشعر على أساس أنه فن يتسم بالعفوية والذاتية، إنما هو علم بكل ما تحمل الكلمة من معان، فهو هنا يعطى الشعر القيم المعيارية والتقاليد الفنية التي يمكنه من خلالها أن يكون علما منظما كغيره من العلوم.

إن الناظر المتأمل للتعريف السابق يجد أنه حوى " القول والوزن والقافية والمعنى" وهي أمور مفصلية حقا في قضية مفهوم الشعر، غير أن الملاحظ أن هذا التعريف لا يذكر أمرا

مهما في كل شعر وهو "العاطفة " التي تقوم بدور أساس وفعال في إثارة المشاعر التي تعد عاملا مهما في دفع الشاعر إلى الإبداع.

كما أن هناك أمرا آخر يمكن ملاحظته على هذا التعريف هو أنه تعريف يخلط بين الشعر وبين المنظومات العلمية: كألفية ابن مالك مثلا فهي تشتمل على كل العناصر التي حد بها قدامه تعريفه، غير أنها لا تدخل تحت نطاق الشعر، فهي مجرد منظومات، يفرق بينها وبين الشعر أمر مهم هو " الروح" التي يبثها الشاعر في شعره؛ مما يؤدى إلى تفعيل الكلام الموزون المقفي، كي يدخل تحت دائرة الإحساس العالي.

غير أن قدامه بن جعفر قد تحدث في كتابه نقد الشعر في أكثر من موضع عن أهمية اللغة المتميزة للشعر، تلك اللغة التي تتبدى فيها قدرة الشاعر على تشكيل الصورة التشكيل الجميل المؤثر، وهذا التشكيل لابد أنه يحتاج إلى لغة متميزة عن لغة الحياة العادية التي تعتمد على المباشرة، فهي لغة تحوى قدرا كبيرا من المجاز والإلماح والشفافية.

ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات فحول الشعراء

إن الناظر المتأمل لتعريف ابن سلام الجمحي للشعر يجده يركز على كونه "صناعة " وهذه النظرة للشعر تجعل للشعر تقاليد معينة وأحكام محددة، يسير الشعر على هديها، مثله في هذا مثل الصناعات الأخرى التي لها قوانينها وتقاليدها، وهذا يجعل للشعر خصوصية واستقلال في وقت كانت حركة التأليف في مجالات العلوم المختلفة قد بدأت، وبدأ معها تحديد الخصوصيات والفواصل بين العلوم، فكأن ابن سلام قد أراد أن يؤصل للشعر ويجعله علما، في وقت أخذ فيه أصحاب العلوم الأخرى يؤصلون لعلومهم، ويسنون لها القوانين.

ويأتي أهمية هذا التعريف للشعر؛ لأنه صدر في وقت كانت فيه النظرة للإبداع الشعري أنه لا يعتمد إلا على العفوية والانطلاق والفطرة السليمة من دون جهد أو نظر، أو قوانين محددة، وليست له مقاييس فنية، أو معايير موضوعية تميزه وتخصه.

إن التقاليد الفنية في نظر ابن سلام الجمحي تتخطى مجرد الأمور الظاهرية وتنفذ إلى الجوهر، فقد تخطى ابن سلام " الوزن والقافية " ولم يعدهما من خصوصيات الشعر الجوهرية، فهما عنده قد يجتمعان في كلام، ومع ذلك لا يعد شعرا، فما يكتبه محمد بن اسحق في نظره "ليس بشعر، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف".

إن النظم عند ابن سلام بما يحويه من أوزان وقواف ليس هو الفيصل في تحديد الشعر، وبعبارة أخرى لا تعد الأوزان والقوافي كافية لإبداع شعر يستحق إطلاق مصطلح الشعر عليه، وعلى الرغم من أن ابن سلام – في الاقتباس السابق – قد أخرج الوزن والقافية من

كونهما التحديد المنضبط للشعر، فإنه لم يثبت تعريفا مخصوصا للشعر يمكننا أن نضع أيـديـنا عليه، غير أن ابن سلام قد وقف ـ بلماحيته المعهودة – على أمر له أهميته حيث لاحـظ أن الشعر يرتبط كثيرا بالبيئة والأحداث الجارية، أو بعبارة أخرى إن البيئة بما فيها مـن أحـداث لها دورها الفعال في الشعر كما وكيفا، أما الكم فقد جاء في قوله: " وبالطـائف شـعر ولـيس بالكثير، وإنا كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء، نحو حرب الأوس والخـزرج، أو قوم يغيرون ويغار عليهم، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة، ولم يحاربوا ".

وأما الكيف فقد جاء في ملاحظته أن البيئة تؤثر أيضا علـى فنيـات التشـكيل الشـعري، وأهمها اللغة، حيث تؤثر – في نظره – الإقامة في الريف ومخالطة العجم إلـى تغيـر اللغـة ولينها، فهو عندما تحدث عن الشاعر " عدي بن زيد " رأى أن سكنه في الحيـرة ومراكنتـه الريف، أدى إلى لين لسانه، وسهولة منطقه حيث يقول عن " عدي بن زيد " إنه " كان يسـكن الحيرة، ويراكن الريف، فلان لسانه وسهل منطقه ".

إن ابن سلام الجمحي في ربطه بين الشعر والبيئة قد فطن بحق لدور البيئة في التأثير على الشعر في جوانبه المختلفة، فالأحداث الجارية لها في نظره دور كبير في غـزارة الشـعر أو قلته، فالحروب وما تحدثه من إثارة لمشاعر الشعراء بما تحمله من ضـرب وطعـن وقتـل وفروسية، وقتلى وأسرى، وسبايا وأسلاب وغنائم ... وغيرها تعمل على إثارة مشاعر الشاعر بكل قوة، فيكون هذا الأمر مثيرا له على قول الشعر، وهذا هو الذي أدى إلى قلة الشـعر فـي قريش؛ لأنه لم يكن هناك أحداث تثير المشاعر فتؤدى إلى إبداع الشعر، ولو كانت حادثة فـي يثرب بين الأوس والخزرج لأدى ذلك من دون شك إلى كثرة الشعر هناك.

كما أن العلاقات الاجتماعية في نظره لها – هي الأخرى – دورها في التأثير على الشعر، غير أنها – هذه المرة – تؤثر عليه كيفا وليس كما، فالشاعر إن كان يتأثر في شعره بالأحداث الجارية من حوله، فهو كذلك يتأثر بعلاقاته بمن حوله، ويبدو تـأثره واضـحا فـي التشـكيل اللغوي لشعره، فهو إن سكن المدينة وتعامل مع أهلها على اختلاف قدراتهم اللغوية، بل علـى اختلاف لغاتهم أصلا فمنهم العربي ومنهم العجمي، فإن هذا يؤدي بالتأكيد إلى التـأثير علـى لغته، مما يؤدي بالضرورة إلى التأثير على شعره، وأورد ابن سلام الجمحي مثالا حيـا علـى هذا الأمر متمثلا في شاعر سكن المدينة وخالط أهلها على اختلاف مشاربهم، فأدى هذا إلـى التأثير السلبي على رصانة شعره وجزالته. ويؤكد هذا الأمر على أن ابن سلام تخطـى فـي نظرته للشعر الرؤية الذاتية، إلى الوجدان الجماعي والعلاقات بين أبناء المجتمع الواحد والبيئة الواحدة.

ابن وهب الكاتب في كتابه البرهان

ويبدو أن هذا السبيل – سبيل ربط الشعر بالشعور – قد سلكه ابن وهب في كتابه البرهان حيث بحث عن الأصل اللغوي لكلمة شعر ووجدها تتمثل في الشعور حيث يقول " والشاعر من شعر يشعر فهو شاعر والمصدر الشعر " إن الفعل شعر يجعل النظر يتجه مباشرة إلى قوة الإدراك والبصيرة العالية النافذة، حيث يستخدم هذه الأمور في إدراك علاقات بين الأشياء لا يستطيع الإنسان العادي الذي لا يملك هذه المقدرة إدراكها.

غير أن ابن وهب يقول " ولا يستحق الشاعر هذا الاسم حتى يأتي بما لا يشعر به غيره " فالشاعر في نظره ينبغي أن يكون متميزا عن الآخرين، أي لابد أن تكون له مقومات تزيد عن مقومات البشر العاديين، فهو شخص غير عادي تتوافر فيه ملكات لا تتوافر في غيره، فقريحته مختلفة، وطبعه مختلف، وقوة فطنته مختلفة، وإدراكه مختلف، وشعوره مختلف، والاختلاف في هذه الأمور اختلاف للأحسن طبعا، مما يجعله متميزا عن الآخرين، وإلا فهو ليس بشاعر مهما راعى الجانب الشكلي للشعر، فرصف كلاما موزونا مقفي، وقد جاء هذا الأمر في معرض قوله " وإذا كان إنما يستحق اسم الشاعر لما ذكرنا، فكل من كان خارجا عن هذا الوصف فليس بشاعر، وإن أتى بكلام موزون مقفي ".

الجانب الشكلي لا يهم في نظر ابن وهب إذا كان الجانب الشكلي المتمثل في الوزن والقافية، هو كل حصيلة الشاعر من الشعر، فالمهم أن يتضافر الجانبان الشكلي والشعوري حتى ينتج الشاعر شعرا يتسم بالجودة، ويستحق أن يطلق عليه لفظ "الشعر".

<u>السؤال الثاني:</u>

على الرغم من اعتقاد بعض الشعراء العرب القدماء أن (الإلهام) يرجع إلى قوى غيبية تتمثل في الشياطين فإنهم لم ينظروا إلى الشعر بوصفه إلهاما محضا يصدر دون جهد وفكر وروية، ناقش هذه القضية من خلال ذكر الروايات النقدية الواردة فيها. الإجابة

أن الحقيقة التي لا مراء فيها أن الإلهام في نظر الشعراء لم يكن إلهاما محضا يصدر فجأة كما تشرق الشمس دون جهد وفكر ووعي، أو أن الشاعر يبدع بعفوية وتلقائية، وبهذا فهو لا يحتاج تعلما أو تدريبا؛ ذلك أن الشعراء قد كانوا على وعى تام أن إبداع الشعر أمر يحتاج إلى مقومات مهمة، فهو يصدر عن جهد إرادي ووعي متزن، كما يصدر كذلك في حضور ثابت للعقل والفكر، ولابد أن يكون الطبع مصقولا بالثقافة المناسبة لإبداع الشعر. ولهذا ورد أن فكرة شياطين الشعراء لم تكن عند الشعراء معتقدا بأن الشياطين يلهمونهم الشعر دون تدخل منهم، فقد ورد عن الجاحظ أن أحد الشعراء قال لأخر: أنا أقول كل ساعة قصيدة، وأنت تقرضها في كل شهر، فلم ذلك ؟ فكان جوابه: لأني لا أقبل من شيطاني مثل الذي تقبله من شيطانك. أي أن الشاعر هنا يثبت أن عملية الإبداع عملية واعية، يقوم فيها الشاعر بالانتقاء،

وعدم إخراج كل ما تجود به قريحته عليه، إنما ينتقى ويختار، ويحذف، ولهذا فقد وجدنا كبار الشعراء، الذين ورد أن لهم شياطينا تلهمهم الشعر، يتعبون قمة التعب حتى يصلوا إلى ما يريدون من إبداع بيت أو قصيدة، وربما صور بعضهم حالته، وما يكابده من مشقة، وما يعانيه من إرهاق حتى يبدأ الشعر في الانثيال عليه. ومن هؤلاء الشاعر الكبير الفرزدق فعلى رغم من أن أبا هلال العسكري قد أورد أن له شيطانا كان يسمى " أبا البنين "، فإن ابن قتيبة في كتابه "الشعر والشعراء" قد أورد عن الفرزدق ما يثبت أن قضية الإبداع عنده لم تكن مجرد إلهام يشرق على النفس من دون تدخل منه، فقد قال الفرزدق " أنا أشعر تميم عند تميم، وربما أنت علي ساعة، نزع ضرس فيها، أسهل على من قول بيت " إن هذا التشبيه ليدل بوضوح على مدى المعاناة والمكابدة التي يتحملها الفرزدق في سبيل الوصول لمرتآه، فأين شيطانه أبو البنين إذن !! وأين الإلهام الذي يشرق على النفس، خاصة أنه قد ورد عن الفرزدق – أيضا – أنه كان إذا صعبت عليه صنعة الشعر، فإنه كان يعمد إلى ناقته فيركبها، ثم يطوف بها منفردا بين شعاب الجبال، وفي بطون الأودية، ويذهب إلى الأماكن الخربة الخالية، حتى يعطيه الكلام قياده. فأين أبو البنين!!؟، كذلك فإن الفرزدق الذي ورد عنه أن له شيطانا يلهمه الشعر، هو هو الذي شهر عنه أنه كان " ينحت من صخر". ومن ثم فقد ذهب البعض للقول بأن رد الشعر إلى قوى غيبية متمثلة في الشياطين، إنما يدل على الوعي بخطر هذه الصناعة، وعظمة مصدرها وامتياز الشاعر على أقرانه بصفات خاصة تؤهله للتعبير الشعري المميز. ومن الملاحظ أن قضية " شياطين الشعر" على رغم من أنها لم تهدم بمجرد ظهور الإسلام إلا أنها أخذت طريقها إلى الاندثار، خاصة في الوقت الذي أخذت فيه النظرية تحتك بل تصطدم ببعض الأسباب المتصلة بالعقيدة، لشدة التقارب بين مفهوم الإلهام ومفهوم الوحي، وما يترتب على ذلك من التسوية بين الشاعر والنبي في التلقي من القوى الغيبية.

وهذا ما دعى أحد المستشرقين/" غرنباوم " في كتابه "دراسات في الأدب العربي" إلى الذهاب إلى أنه لما جاء الإسلام اقتضى الوضع الجديد أن يميز الناس بين الوحي الذي يختص به النبي، والإلهام الذي يتصل بالشعر، وهذا حال دون رفع الشعر إلى مستوى الإلهام الصادر عن قوة لا إنسانية ".

مما تقدم نرى ضرورة النظر في مصطلح " الإلهام " والبحث في تحديده، وتحديد مفهومه.

وتبدو أهمية هذا الأمر في الوقت الذي يذهب فيه كبار النقاد للقول بالبديهة والإلهام، فقد ورد عن الجاحظ – في كتابه البيان والتبيين – قوله: وكل شئ للعرب إنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام، وليست معاناة أو مكابدة، ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام.. فتأتيه المعاني أرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا.

إن هذا الكلام من الجاحظ يثبت تماما أنه من أنصار القول بالإلهام ورد الإبداع للبديهة والارتجال والعفوية من دون إرادة واعية غير أن هذا الكلام ينبغي ألا يؤخذ على عواهنه، بل ينبغي النظر إليه أخذين في الاعتبار الآراء الأخرى للجاحظ:

ذلك أن الجاحظ يشير في مواضع أخرى بأهمية وقيمة التجويد الفني، ويعلى من قدر الروية والتأني، مما يشير إلى إيمانه بإرادة المبدعين، فهو لما هجا " سويد بن كراع العكلي" بعض الناس استعدوا عليه سعيد بن عثمان بن عفان، فهرب وتوارى، وفي تواريه يصور حاله وهو ينظم القصيدة، فكأن القصيدة سرب من الحيوانات الوحشية، حيث يداريها ليصيد منها، فيراقبها طوال الليل حتى يأتي وقت السحر، ومع ذلك فهي أبيه، لا تطاوعه ولا يستطيع أن يصطادها إلا بعد أن وبتعب:

- أبيت بأبواب القوافي كأنما أصادي بها سربا من الوحش نزعا
- أكالؤها حتى أعرس بعدما يكون سحيرا أو بعيدا فأهجعا
- عواصي إلا ما جعلت أمامها عصا مربد تغشى نحورا وأذرعا
- بعيدة شأ و لا يكاد يردها لها طالب حتى يكل ويظلعا

وفي هذا القصيدة يوضح لنا الشاعر كيف أنه لا يعلن القصيدة على الناس إلا بعد أن يجودها ويثقفها في عام كامل وربيع فيقول:

- وجشمني خوف ابن عفان ردها فتقفتها حولا جريدا ومربعا

وقد أورد الجاحظ هذه الأبيات وعلق عليها بقوله: ولا حاجة بنا مع هذه الفقرة إلى الزيادة في الدليل على ما قلنا، ولذلك قال الحطيئة: خير الشعر المولى المحكك.

فقد ذهب الجاحظ قبله للقول بأن زهير بن أبى سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر، وكذلك كل من يجود في جميع شعره، ويقف عند كل بيت قاله، وأعاد فيه النظر، حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة، وكان يقال: لولا أن الشعر قد كان استعبدهم واستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلف، وأصحاب الصنعة، ومن يلتمس قعر الكلام، واغتصاب الألفاظ لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهوا ورهوا، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالا"

والقول السابق للحطيئة: خير الشعر الحولي المحكك، فإن كلمة "الحولي" هنا تعنى القصيدة الطويلة التي انفق صاحبها وقتا طويلا كأنه حول أي عام وهو ينقمها ويعيد فيها النظر فيغير ويبدل ما يراه، وقد اشتهر بهذا من الشعراء زهير حيث قيل عنه إنه صاحب الحوليات.